فلسفة الغيبة(غيبة الامام المهدي): تدبير إلهي لمسيرة البشرية

إن القراءة الدينية (الإسلامية) لمسيرة البشرية لا تقوم على أساس أن الفعل البشري فعل جبري، كما لا تقوم على أساس أن مسير البشرية يتحرك بشكل عشوائي بعيداً عن التدبير الإلهي، الذي يهدف في نهاية المطاف إلى تحقيق الأطروحة الإلهية على هذه الأرض وإلى تحقيق «نظرية الاستخلاف» بأوسع معانيها بما يشمل جميع أرجاء المعمورة.

إن فلسفة الغيبة غيبة الإمام المهدي (عج) تعني فيما تعنيه تجميد الأطروحة الإلهية بمرتبتها المعصومة ومداها الشامل بسبب من رفض البشرية لهذه الأطروحة في شكلها النقي، في مقابل الأخذ بالأطروحة الوضعية في تدبير إلهي يهدف إلى اختبار البشرية لتعاليها أمام اللَّه تعالى.

إن فعل الايجاد وعملية الخلق في المعتقد الديني ليست عملية عبثية أو خالية من الحكمة وإن الشأن الديني ليس شأناً ماورائياً بحتاً بل هو أيضاً شأن دنيوي يتمظهر في مختلف مجالات الحياة بهدف تحقيق عبودية الإنسان للَّه تعالى، لأن كنه هذه العبودية للَّه تعالى يعني تعالي الإنسان باللَّه تعالى وتساميه وتحقيقه لإنسانيته، بينما خضوع الإنسان لميوله المنحطة يعني تسافل الإنسان وإن تمظهر هذا الخضوع بمظهر الحرية أو أي مظهر اخر.

لقد اقتضت هذه الحكمة أن يختبر الإنسان ابتعاده عن اللَّه تعالى ورفضه للأطروحة الإلهية في مختلف المجالات الاجتماعية والسياسية والقانونية... لتدرك البشرية بالتجربة والوجدان، عدم قدرتها على الوصول إلى السعادة الفعلية، طالما بقيت بعيدة عن التمسك بالعبودية للَّه تعالى في مختلف المجالات وطالما بقيت تتعامل مع اللَّه تعالى معاملة ندية.

إن التاريخ الديني تاريخ قائم على أساس عدم انقطاع التوجيه الإلهي للبشرية من خلال فعل النبوة وحركة الأولياء والأوصياء، وهنا عندما نتحدث عن التوجيه الإلهي (أو الهداية الإلهية) فهو ليس شأناً وعظياً بحتاً، بل إن هذا التوجيه قائم على أساس فعل الاستخلاف الذي يعني تمثل الإرادة الإلهية في مختلف المجالات الحياتية وشؤون الإنسان، لكن كلما

كانت الأطروحة الإلهية ترتقي كان يتعاظم الرفض لها من قبل مجتمع المترفين وغيرهم، هذا الرفض الذي تتطلب في نهاية المطاف حرمان البشرية من الوجود العصموي، أي من وجود تلك الأطروحة ومن تطبيقها الواسع والشامل، أو يستطيع أن نقول بتعبير اخر إن هذا الرفض لتلك الأطروحة يعني في الواقع حرمان البشرية منها، لكن غياب ممثل تلك الأطروحة يعني بحسب الفهم الديني اجراءً اختبارياً لتعالي الإنسان يهدف إلى تمهيد الظروف الموضوعية لعودة تلك الأطروحة بأعلى مراتبها بعد أن تكتشف البشرية فشلها وعدم قدرتها على إدارة نفسها بمعزل عن الهداية الإلهية.

ومن هنا كانت غيبة الإمام المهدي (عج) اجراءً اختبارياً وهادفاً في الان نفسه، أي إن غيبة الإمام (ع) تهدف إلى القول للبشرية إنه إذا كنت ترفضين الهداية الإلهية المتمثلة في شخص الإمام فما عليك إلا أن تختبري أطروحتك الوضعية، باعتبار أن فشل هذه الأطروحة في تحقيق أهداف الإنسان بما يعنيه هذا الفشل من ويلات ودمار والام وحروب وظلم وقتل وخراب... سوف يفتح قلوب البشر ويوجه امالهم إلى رجائهم الأخير، وهو ما سوف يهيء الظروف لعملية الظهور وأهدافها الواسعة في عودة البشرية إلى الهداية الإلهية بأرقى مراتبها.

أما لماذا ينبغي للتاريخ الديني أن يمتد إلى هذه المدة، فأولاً لا بد أن تصل البشرية إلى مستوى تقر بفشلها وعجزها وثانياً لا بد أن تصل العولمة الثقافية والمعرفية والاعلامية إلى مستوى تصبح فيه مفاهيم الإسلام وقيمه ومعارفه في متناول كل شخص وثالثاً أن يصبح التقدم المعرفي والعلمي والتقني إلى حد يمكن لجميع المجتمعات البشرية أن تعاين الظاهرة الدينية وتدرسها بشكل علمي وموضوعي.

ولذا كانت غيبة الإمام غيبة اعجازية وكذلك عودته سوف تكون عودة اعجازية في فعل يراد منه عودة الجذوة الدينية إلى الواقع الإنساني بقوة، بل لا بد أن تكون عودة الحس الديني أمراً متقدماً على عملية الظهور باعتبار أن عودة الحس الديني من أهم الأمور التي سوف تساعد على تحقيق فعل الاستخلاف على البسيطة.

وعلى ما تقدم فإن التاريخ البشري كما بدأ على هذه البسيطة بشكل حكيم وهادف فسوف ينتهي أيضاً بشكل حكيم وهادف، فهو لن يستمر إلى ما لا نهاية كما لن ينتهي بشكل عبثي أو عشوائي أو نتيجة لخطأ بشري، بل أن هذه البسيطة التي (أوكلت) للإنسان الظلوم الجهول لا بد من عودتها في نهاية المطاف إلى الإنسان المستخلف أي إلى الإرادة الإلهية والولاية الإلهية وإلى تطبيق الأطروحة الإلهية بمرتبتها المعصومة ومداها الشامل «ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً».

وهذه العودة ليست عودة تفقد الإنسان عنصر الاختيار، بل هي عودة تتراكم فيها بعض العناصر الإعجازية (علامات الظهور) في فعل تمهيدي للمشروع التغييري والاصلاحي العالمي للإمام المهدي.

أما لماذا يكون الظهور بمعية عودة المسيح (ع) فيبدو أنه فعل تقريب بين العالمين الإسلامي والمسيحي خصوصاً إذا ما التفتنا إلى أن طبيعة التربية الدينية المسيحية تدفع باتجاه عدم التعالي أمام اللّه تعالى «لا يستكبرون»، أما الخلاف الاعتقادي في موضوع النبي عيسى (ع) فسوف تنتهي مبرراته مع مجيء الشخص المختلف فيه لأنه مهما كانت التراكمات الاعتقادية تدفع باتجاه الاختلاف فإن بيان الشخص عن نفسه وهو الأعرف بحقيقته سوف يحسم مادة الخلاف.

الشيخ محمد شقير

أستاذ في معهد الرسول الأكرم (ص) دكتوراه في الفلسفة